التقاءُ المصالح: الدفعُ الإسرائيلي باتجاه التطبيع

إسطفان شيحا

غالبًا ما شعرتُ، بوصفي أستاذًا سابقًا في الجامعة الأميركية في بيروت، بأنّ سياساتي التقدُّمية كانت تميِّزني من زملائي الذين كنتُ لأنسجمَ معهم لولاها بل إنّ عددًا من زملائي، مثلاً، بدوْا مهتمِّين بمشاركتي في اعتصامٍ داعمٍ لفلسطين كان مخطَّطًا له أن يُعقَدَ في ١٢ تموز (يوليو). وكانَ الاعتصامُ في ساحة البرج قد تمّ تنظيمُه على يد ائتلافِ مجموعاتٍ ناشطةٍ تقدُّميةٍ، لبنانيةٍ وفلسطينيةٍ، احتجاجًا على توغُّلاتِ إسرائيل واعتداءاتها على غزّة، واحتفاءً بمقاومة الشعب الفلسطيني وصمودِه؛ وكان يُنْتظر أن يُشاركَ في ذلك الاعتصام فنّانون وموسيقيون وشعراء ولمّا كنتُ قد قبلتُ أن أتولّى منصبًا جامعيّاً جديدًا في الولايات المتحدة، ووافقتُ على السفر إلى هناك في آب (أغسطس)، فإنّ مشاركتي تلك كانت على الأرجح آخرَ عملٍ لي على الأرض في لبنان قبل مضيّ زمنٍ طويل. غير أنّ الهجوم الإسرائيلي على لبنان أَثْبتَ خطإي.

فبحلولِ يوم السبت ألغى الجيشُ اللبناني الاعتصامَ المقرَّر لأنّه كان على بعد ١٠٠ متر فقط من «الرينغ» (جادّة فؤاد شهاب)، وهو الجسرُ والشريانُ الرئيسي الذي يَرْبط شطريْ بيروت الغربيةِ والشرقية، خوفًا من أن يتعرّضَ للقصفِ الإسرائيلي بيْد أنّ الائتلافَ المذكور، الذي انضمّت إليه حفنةٌ من المنظّمات اللبنانية والأجنبية غيرِ الحكومية، استطاع خلال تلك الأيام الثلاثة أن يُعيدَ تشكيلَ نفسِه بسرعةٍ على صورةِ هيئةِ إغاثةٍ للنازحين كانت من أوائلِ هيئاتِ الإغاثة على الأرض آنذاك.

تدفَّقَ النازحون إلى العاصمة بيروت، ونام كثيرون منهم في حديقة الصنائع. عندها راح الائتلافُ، الذي بات اسمُه «صامدون،» ينسِّق انطلاقًا من مركز الإغاثة (زيكو هاوس) مع عدد من منظّمات الإغاثة الأخرى ولاسيّما «الصليب الأحمر اللبناني» الذي كان ومايزال من أبرز المؤسَّسات اللاطائفية غيرِ المسيَّسة في لبنان وخلال أسبوع كان المتطوّعون في مجموعة «صامدون» يهتمّون بأكثر من ١٠ آلاف نازح منتشرين في حوالي ثلاثين مدرسة على امتداد العاصمة.

تقدّمتْ مجموعةُ «صامدون» في غياب حكومة لبنانية فاعلة وحازمة، مع أنّ «النقّاد» وصانعي السياسة الغربيين لا ينفكّون يُسْبغون الثناءَ على السنيورة وكتلةِ ١٤ آذار لكونهما مؤشِّريْن على ولادة لبنان ديموقراطي؛ وفي الإطار عيْنه يتّهم المحافظون الأميركيون الجدد والليبراليون الأميركيون العالمَ العربيَّ «اللاعقلاني» بالافتقارِ إلى «مجتمعٍ مدنيّ» ضروريّ لقيامِ «مجتمعٍ حرّ.»

لكنّ عمليات إغاثة النازحين أثبتتْ أنّ «الشارعَ العربي اللاعقلاني» ـ المؤلَّفَ من ناشطين وأساتذة جامعيين وطلاب وعمّال ومهنيين ومدبّراتِ منزل . ـ أَظْهر فضائلَ ديموقراطيةً ومدنيةً كانت غائبةً عقب مأساة إعصار كاترينا مثلاً. والأهمّ أنّ نشاطَ أولئك الناس فَضَحَ أساطيرَ محور الحريري ـ جنبلاط ـ القوات اللبنانية، المهمّةَ بشكلٍ خاصٍّ لـ «شرقِ بوش الأوسطِ الجديد.»

كانت الحكومةُ اللبنانيةُ الموالية لأميركا مصعوقةً من جرّاء القصف، أو متواطئةً. ومع أنّها برئاسةِ أوْ دعم أغنى القادة في العالم (من المؤسسة الحريرية إلى العائلة السعودية المالكة إلى شركة بوش)، فإنّها تَفْتقر إلى الموارد اللازمة وإلى التخطيط والتنظيم. ويدلّ ردُّ فعلها الضعيفُ على عجزها ولامسؤوليّتها، إنْ لم يكن استخفافها (الذي باتَ ماركةً مسجلّةً لها) بالطبقات الفقيرة من سكّانِ المدن والأريافِ اللبنانية الأكثر من ذلك أنّ ردَّ فعل الحكومة يستدعي إلى الذهن عاملاً أساسيّاً كانت إسرائيلُ والولاياتُ المتحدة قد أخذتاه في الاعتبار عند التخطيط لاعتدائهما على لبنان: وهو أنّ الهدفَ الأشملَ للحرب الإسرائيلية اللاشرعية على لبنان قد يُنْظر إليه بعيْن العطف من قِبل خصوم حزب اللّه في التحالف اللبناني الحاكم. والحقّ أنّ اعتداءات أولمرت لم تَهْدفْ إلى تدمير حزب الله **مباشرةً** بقدْر ما هَدَفتْ إلى إجبار الحكومة اللبنانية على نشرِ جيشٍ لبنانيٍّ ضعيفٍ وعاجز على الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية، دافعةً بذلك لبنانَ رويْدًا رويدًا إلى التطبيع مع إسرائيل. ولقد أدركتْ إسرائيل أنّها ـ بخَلْقها أزمةً إنسانيةً ومعاناةً شعبيةً وبتدميرها

غابرييلا بوليسوڤا

سيارة تحت الأنقاض في الضاحية الجنوبية

لاقتصاد لبنان ـ قد تَبْلغ أهدافًا سياسيةً يؤكّد إلياس عطا اللّه (في مقابلاتٍ أُجريتْ معه مؤخّرًا) أنّها هي نفسُها أهدافُ حكومة ١٤ آذار من وراء «الحوار الوطني.»[١]

لقد كان واضحًا أنّ ما تحاول إسرائيل فرضَه على لبنان هو أهدافٌ سياسيةٌ تشاركها فيها حكومةُ ١٤ آذار، ألاَ وهي: نزعُ سلاح حزب اللّه، وإضعافُه سياسيّاً، ونشرُ الجيش اللبناني في الجنوب، وإزالةُ الطابع العسكري عن الحدود (بما في ذلك مزارعُ شبعا وكفرشوبا). وهذه كلُّها خطواتٌ حاسمةٌ على طريق التطبيع.

علاوةً على ذلك، فإنّ بقاء سورية خارج النزاع سيعرِّضها للمزيد من العُزْلة، وسيُظْهر عجزَها بشكلٍ ساطع. ولكنْ إذا استُفزّتْ إيرانُ وسوريا (التي يتبجَّح كثيرون داخلها بانتصاراتهم) إلى ميدان القتال، فذلك سيقدِّم لإسرائيل والولايات المتّحدة مبرِّرًا لتدمير قُدُرات إيران النووية (التي تَجْحَظُ باتجاهها عيونُ الصقور من الحزبيْن الجمهوري والديموقراطي الأميركيين). وسيَفْتح انخراطُ سوريا (غيرُ المرجَّح) في الحرب البابَ أمام قصفٍ جويٍّ هائلٍ يتعرّض له الجيشُ السوري أملاً في التعجيل بانقلابٍ داخليّ ضدّ النظام السلطوي في سوريا. هذه السيناريوهات، الرابحةُ في كل الأحوال بالنسبة إلى إسرائيل وكتلةِ ١٤ آذار والولايات المتحدة، هي وراء رفض كوندوليسّا رايس منذ البداية العملَ على «وقْفِ إطلاق النار.» بل إنّها، بدلاً من ذلك، جاءت إلى لبنان للبحث عن تأمينِ استسلام أُحاديّ الجانب (من طرف حزب اللّه) للمطالب الإسرائيلية، وإلاّ دَعَتْ إلى «خطةِ سلام.» وهكذا فإنّ لبنان، بعد إزالة الطابع العسكري عن حدوده مع إسرائيل، وبعد إزاحة سلاح حزب اللّه (الذي أَثْبت أنّه رادعٌ عسكريٌّ فعّال)، سيُعَرَّى من ورقتيْن رابحتيْن أساسيتيْن في المفاوضات، وهذا ما سيَسْمح لإسرائيل بالضغط من أجل معاهدةِ سلامٍ ثنائيةٍ تكون أكثرَ «حميميةً» مع لبنان وتكون ـ من دون أدنى شكّ ـ برعاية الولايات المتحدة «النزيهة.»

لا يحتاج المرءُ إلى أن يكون بروفسورًا لكي يدركَ أنّ حربَ إسرائيل، المسمّاةَ (بتعبيرٍ انتقاميٍّ) «عمليةَ الثواب العادل،» لم

١ ـ يورد Bryan Bender من **Boston Glob** نقلاً عن عطا اللّه قولَه «إنّ حزبَ اللّه لا يريد التخلّي عن سلاحه، وهذا يعني أنّ الأزمةَ ستستمرّ لقد تركوا [حزبُ اللّه] مائدةَ [الحوار الوطني] وذهبوا لإطلاق النار.» أنظر www.boston.com/news/world/articles/2006/08/08

التقاءُ المصالح: الدَّفعُ الإسرائيلي باتجاه التطبيع

تكن أبدًا بهدف استرجاع الجنديَّيْن الإسرائيليَّيْن اللذيْن أسَرَهما حزبُ اللّه في ١٢ تموز (يوليو). ولا يحتاج المرءُ أيضًا إلى أن يكون عربيّاً لكي يُدركَ منذ البداية أنّ هذه الحربَ لم تكن «حربًا على الإرهاب» بل حربٌ إرهابيةٌ ضدّ الشعب اللبناني. فلقد أدرك اللبنانيون والفلسطينيون، بالحَدْس والبديهة، أنّ ردّ الفعل الإسرائيلي على عملية الأَسْر هو عمليةٌ محسوبةٌ ومخطّطةٌ بدقّةٍ قَبْلَ حدوثها، وأنّها تمّت بمعرفةٍ كاملةٍ من طرف وزارة الدفاع ووزارة الخارجية الأميركيتيْن ومع ذلك فقد اكتشفتُ بعد إجلائي إلى الولايات المتحدة أنّ كثيرًا من أصحاب العقول المسيَّسة ممّن يكادون لا يثقون برؤيةِ بوش إلى «الشرق الأوسط الجديد» يَعْجزون عن فهم الالتقاءِ المشؤوم لمصالح إدارة بوش ومصالح حلفائها في الحَكومتيْن الإسرائيلية واللبنانية. ولعلّ هذا هو أكثرُ ما صدمني عند وصولي إلى الولايات المتحدة؛ إذ لم يَعْلم أولئك الناس أنّ ضابطًا إسرائيليّاً رفيعًا زار وزارةَ الدفاع الأميركية العامَ الماضي ليَعْرِضَ خطةَ الحرب القادمة على لبنان غير أنّ أساتذةً جامعيين أميركيين التقيتُ بهم على امتداد الولايات المتحدة رُوِّعوا حين قرأوا سيمور هيرش يورد أنّ مستشارًا للحكومة الأميركية قال: «في وقتٍ مبكّر من هذا الصيف . زار واشنطن عدةُ مسؤولين إسرائيليين، كلٌّ على حِدة، 'من أجل أن يَحْصلوا على ضوءٍ أخضر لعملية القصف' » بل إنّ قلّةً قليلةً من زملائي الأميركيين والأوروبيين عَلِموا أنّ الولايات المتحدة وافقت العامَ الماضي على أن تبيع لإسرائيل ١٠٠ قاذفة مدمِّرة للحصون العسكرية (Bunker Busters)، كلٌّ منها تَزِن ٢٥٠٠ كغ، ومزوَّدة برؤوس حربيةٍ مطليّة باليورانيوم المنضَّب والموجَّهة باللايزر، وأَرسلتْ على عَجَلٍ محروقاتٍ وأسلحةً إلى الجيش الإسرائيلي في منتصف تموز (يوليو). والهدف، بعبارة أحد المسؤولين الأميركيين، هو «إعادةُ تزويدٍ طارئةٌ» (emergency re-supply) للجيش الإسرائيلي

في العام الماضي اتَّهَمَ محافظون جُدُدٌ من الهُواة، في كلٍّ من بيروت وواشنطن، الجامعةَ الأميركيةَ في بيروت بأنّها ذاتُ عواطف «يسارية.» وشأنَ حفنةٍ من اليساريين الملتزمين وسطَ هيئةِ مدرّسين محافظين سياسيّاً واجتماعيّاً، فقد استمَتعتُ بسخفِ ذلك الزعم، بقدْرِ ما أغاظني نقلُ الهجوم الرجعي الأحمق ضدّ الأكاديميين في الولايات المتحدة بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) و«ازدراعُه» في لبنان. والحال أنّه برغم الآراء السياسية المنوَّعة التي تبنّاها أساتذةُ الجامعة الأميركية في بيروت من لبنانيين وأجانب، فإنّ عدوان إسرائيل العاري على لبنان قد فَتَحَ أمامنا مجالاً للتوحّد، ولاسيّما في مجال إغاثة النازحين وأعتقد أنّ معظمَ هؤلاء الأساتذة، بمن فيهم الكثيرون ممّن انتقدوا حزبَ اللّه، سيوافقون على كثير من الأفكار الواردة في هذه المقالة غير أنّ انتقالي إلى الولايات المتحدة يناقِضُ تجربتي في لبنان: فعلى أثر نشري لمقالاتٍ عن العدوان الإسرائيلي على لبنان، تلقّيتُ سلسلةً من التهجُّمات الشخصية المنشورة في المطبوعات أو في الإعلام الالكتروني، وعَلَت احتجاجاتٌ رُفعتْ إلى أعلى المناصب في الجامعة تطالب بإقالتي. والحقّ أنّ ثمة مفارقةً مشؤومةً في هذا الانتقال من المحيط الأكاديمي اللبناني إلى المحيط الأكاديمي الأميركي، وهي تؤشّر إلى التيار عينِه الذي يَرْبط ما بين مقاومة حزب اللّه و«الإرهاب»؛ وهو التيارُ الإيديولوجيُّ نفسُه الذي سيُجبر الحكومةَ اللبنانيةَ المطواعةَ في النهاية على التطبيع الأحادي الجانب بكلامٍ آخر، فإنّ جوّ التخويف النيو ـ محافظ، بالرغم من دفاع الجامعة المحموم عن الحقّ في حرية التعبير المطّلع، قد بدأ بتشكيلِ رؤيةٍ نيوليبراليةٍ إلى العالم بحيث يُربط الكلامُ ضدّ الظلم الإسرائيلي والإجرام الأميركي ربطًا فوريّاً بالنشاط «الهدّام» وبدعم تنظيم «القاعدة.» غير أنّنا «لن نَصْمت» كما تَذْكر عبارةٌ على قمصان ناشطين أميركيين من أجل السلام.

جنوب كارولاينا

د. إسطفان شيحا

بروفسورٌ مشارك في الثقافة العربية، دائرة اللغات والآداب والثقافات في جامعة جنوبي كارولاينا